



## \* معمودية الأطفال

تؤكد كنيستنا الارثوذكسية على تعميم جميع الناس ، كباراً وصغاراً ، بناءً على قول ربها ورئيسها يسوع المسيح : " ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر ان يدخل ملكوت الله" (يو: ٣: ٥). ولهذا نتأثر على تعميم الاطفال بشكل خاص لكي يكون لهم نصيب ايضاً في الملكوت. الا ان البعض ، بسبب من فهمهم الحرفي لكلمات الكتاب المقدس ، يرفضون معمودية الاطفال والبعض الآخر يؤكد على معمديتهم انما يرفض اشتراكهم في المناولة المقدسة قبل عمر معين على اساس أنهم لا يدركون ما يفعلون. هاتان الحالتان متشابهتان في العمق وان اختلفتا ظاهرياً لان الطفل في كلتا الحالتين يُحرم من النمو في المسيح ليصل الى ملء قامته.

بعض الناس لا يميزون بين معمودية يسوع من يوحنا المعمدان ومعمديتنا . هنا لا بد من توضيح اذ ان معمودية يسوع تختلف جوهرياً عن معمديتنا ، لان يسوع اعتمد من يوحنا لكنه لم يكن بحاجة الى التوبة التي كان يوحنا يدعو الناس اليها (مر ١: ٤) ، اذ نعلم بان يسوع كان " مجرباً في كل شيء مثلنا بلا خطيئة " (عبر ٤: ١٥) ، لهذا السبب لم يرد يوحنا ان يعمده في البداية وقال له : "انا محتاج ان اعتمد منك " (متى ٣: ١٤) ، لكن يسوع أصرّ على تعميده كأبي يهودي عادي قائلاً : "هكذا يليق بنا ان نكمل كل بر " (متى ٣: ١٥). يقول القديس كيرلس الاورشليمي (الذي اشترك في المجمع المسكوني الثاني سنة ٣٨١م) : "ان يسوع قدس العماد عندما عمّد هو نفسه. ان كان ابن الله عمّد فليس من أجل الحصول على مغفرة خطايه لأنه كان بلا خطيئة ، ولكنه عمّد ، هو المنزه عن الخطيئة ، لكي يمنح المعمدين النعمة الالهية والكرامة " (أنظر العظة الثالثة المقطع ١١ من عظاته في المعمودية).

إذا معمودية يسوع تختلف عن معمديتنا التي نحصل عليها لنصير مسيحيين ، فهل يُعقل ان يعتمد يسوع ليصير نفسه أي مسيحياً ! فلا مجال اذاً للمقارنة بين المعموديتين. وكل من يريد ان يتمثل بمعمودية يسوع ويريد ان يُعمّد وهو في سن الثلاثين ، فعليه ان يتمثل بكل ما عمله يسوع أي ان يُصلب ويموت في سن الثالثة والثلاثين. حاشا. لان العمل الخلاصي الذي أتمّه يسوع من أجل الجميع انما تمّ مرة واحدة والى الابد.

تبقى المشكلة مع الحرفيين الذين لا يقبلون تعميم الاطفال بحجة أنهم لا يستطيعون الاعتراف بايمانهم بيسوع مستنديين الى حرفية بعض آيات الكتاب المقدس مثل : "اذهبوا

وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم بأسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به. " (متى ٢٨ : ١٩-٢٠) و "من آمن واعتمد خلص" (مر ١٦ : ١٦). ينطلق الحرفيون في اعتراضهم من هاتين الآيتين على أساس ان الايمان يسبق المعمودية ، وهذا ما لا يستطيعه الطفل ، مما يجعل المعمودية غير ممكنة. اما جملة " اذهبوا وتلمذوا ... وعمدوهم .."

فتفرض بنظرهم ان التلمذة تسبق المعمودية ومن يكون تلميذاً يستطيع ان يفهم. وبما ان الطفل لا يكون قادراً على الفهم في الأشهر الاولى من حياته فليس من الممكن تعميده الاً عندما يكبر .

ان التأكيد على الاقرار بالايمان قبل المعمودية امر لا جدل فيه ، وكنيستنا الارثوذكسية تفرض على المزمع ان يعتمد ، في خدمة المعمودية التي تمارسها ، ان يقر بايمانه وذلك بتلاوة دستور الايمان قبل ان يعتمد. وان كان هذا طفلاً فمن البديهي انه لا يستطيع الاقرار بشيء. هنا يأتي دور العراب او الكفيل ، وهذه الممارسة معروفة في الكنيسة منذ زمن ودون أي تحفظ. لكن المشكلة بدأت منذ القرون الوسطى. عندما اراد الحرفيون حصر المعمودية بالكبار للأسباب التي ذكرناها.

اجابتنا عليهم سننعمد على ما جاء في الكتاب المقدس.

١- ان ربنا يسوع المسيح طلب في عدة مناسبات الايمنع الاطفال من المجيء اليه لأن لمثلهم ملكوت السموات ( انظر متى ١٨ : ٣-٤ و ٩ : ١٤ ومر ١٠ : ١٤) اما بولس الرسول فيخاطب تيموثاوس قائلاً : " أنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة ان تحمك للخلاص بالايمان الذي في المسيح يسوع " (٢ تيمو ٣ : ١٥)

نلاحظ ان كلمة " الاطفال " المستعملة في النص السابق هي Paidia أي الاولاد كما ان كلمة " الطفولية " في النص الثاني هي Brefos أي الطفل الرضيع وكناتهما استعملتا بايجابية تجاه الاولاد ويقصد بهما الخلاص بالايمان والدخول الى الملكوت.

قد يقول قائل بان الايمان يجب ان يسبق أي امر يتعلق بمعموديتنا او علاقتنا بالرب. هذا لا ننكره البتة ، ولكننا نلاحظ في المقابل بان الكتاب المقدس يحوي حالات كثيرة تعرض لنا استفادة اناس بسبب من ايمان غيرهم. الانسان المؤمن كان يدرك بانه يجلب رحمة للآخر المحبوب الذي لم يكن يؤمن في تلك الساعة نفسها ، او على الاقل لم يكن يدرك ماذا يجري لكن الرب كان يستجيب : نقرأ مثلاً عن ايمان رئيس المجمع اليهودي يايروس الذي سجد امام يسوع ليقدم له ابنته المائتة (انظر متى ٩ : ١٨-٢٦ ومر ٥ : ٢٢-٤٢) ، فنلاحظ ان يسوع اقامها لا بناء على ايمانها ، خاصة وانها كانت قد ماتت ولم تكن تؤمن في تلك اللحظة

، بل بناءً على ايمان ابائها. هذه الحقيقة تتكرر كثيراً في الكتاب المقدس ، مع المرأة الكنعانية التي بايمانها شفيت ابنتها (متى ١٥ : ٢١-٢٨) ، والاب الذي نال ابنه الشفاء بسبب ايمانه (مر ٩: ١٧-٢٧) ، وقائد المئة وشفاء عبد (لو ٧ : ٢-١٠) ، والرجال الاربعة الذين نقبوا السقف

ودلّوا المفلوج الذي كانوا يحملونه الى يسوع حيث نقراً حرفياً " فلما رأى ايمانهم " وليس "ايمانه " غفر له يسوع خطاياہ وشفاه من مرضه ( انظر لو ٥ : ١٨-٢٥ )

ان كنا نحن الكبار نعي بان المعمودية هي ان نلبس المسيح (غلا ٣ : ٢٧) ، وأن نسلک في حياة جديدة (رو ٦ : ٤) و"ان نصير ابناء للنور ووارثين للخيرات الابدية ومشاركين في موت المسيح الهنا وقيامته..." (انظر الطلبة السلامية الكبرى في بدء خدمة المعمودية في طقس الكنيسة الارثوذكسية) ، ونؤمن بان المعمودية تؤهلنا ليكون لنا نصيب في ملكوت الله وهذا هو هدف الحياة المسيحية ، فيجب طرح السؤال التالي : الا يجب ان يستفيد اطفالنا من ايماننا لنيل هذه البركات والنعم الالهية ، خاصة وانهم يكونون في وضع لا يستطيعون فيه ان يقرروا ما هو لخيرهم. هل يسأل الاب ابنه الصغير رأيه اذا كان يريد الذهاب الى المدرسة والتزود بالعلم الدنيوي ؟ ام يقرر ارساله الى المدرسة لانه يعلم بان ذهابه يفيد حتى ولو كان ذلك غصبا عنه؟ الا يشقى الاهل كثيرا كي يعملوا ليؤمنوا لاولادهم حياة مرفهة ومقبولة ؟ هنا نتذكر كلام ربنا يسوع : " فمن منكم وهو اب يسأله ابنه خبزاً أفيعطيه حجراً ، او سمكة أفيعطيه حية بدل

السمكة او اذا سأله بيضة أفيعطيه عقرباً. فان كنتم وانتم اشرار تعرفون ان تعطوا اولادكم عطايا جيدة ، فكم بالحري الأب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه " (لو ١١ : ١١-١٣)

نعلم جيدا ان الانسان مهما طال عمره سيموت يوماً ما ، ومهما اعتنى الانسان بصحته

فانه سيصل الى وقت سيزول فيه من هذا العالم ، لان طبيعة الانسان مائتة ومريضة. لذلك اذا كنا نحن الكبار نعرف كل هذه الامور ونهتم باولادنا ، الا يجدر بنا ان نهتم بهم للحياة الابدية ،

وان نبدأ بمعموديتهم منذ الطفولية ، وان نعطيهم القربان المقدس للسلوك في " حياة جديدة " (رو ٦ : ٤) لا تفنى حتى ولو متنا لاننا " نؤمن اننا سنحيا ايضا معه " (رو ٦ : ٨)

٢- بينا سابقا الفرق بين معمودية يسوع ومعموديتنا ، واهمية اقرار المرء بايمانه قبل الحصول على سر المعمودية ، وذكرنا ان الكنيسة المقدسة ارتأت ان تضع العرابين كي لا

تحرم الاطفال من المعمودية ودخول الملكوت ، كما رأينا كيف استفاد كثيرون من ايمان اقربائهم ومعارفهم.

ان الكنيسة وعت منذ نشأتها اهمية خلاص كل الناس ولهذا لم تحرم من اراد المعمودية صغيراً كان او كبيراً. نرى منذ العصر الرسولي ممارسة المعمودية تشمل الجميع او "فلاناً واهل بيته" وهذه العبارة مهمة جداً لاطهار شمولية المعمودية دون استثناء احد. يقول بطرس الرسول : " توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح ... لان الموعد هو لكم ولاولادكم " ( أع ٢: ٣٨: ٣٩). ان حرمان الاولاد الموعد أي المعمودية كان امراً غير مقبول في الكنيسة الاولى : نلاحظ مثلاً بان ليديا بائعة الارجوان لم تكن وحدها عندما اعتمدت وانما

"اعتمدت هي واهل بيتها" (أع ١٦: ١٥). كما ان الرسولين بولس وسيلا عندما كانا مسجونين التقيا بحافظ السجن وقالوا له " آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص انت واهل بيتك ... واعتمد في الحال هو والذين له اجمعون " (أع ١٦ : ٣١-٣٣). الملاحظ في الحادثة الاخيرة ان الرسولين توجهوا شخصياً الى حافظ السجن كي يؤمن واذا آمن هو يخلص اهل بيته. اما ردة الفعل فكانت ان " اعتمد والذين له اجمعون ". هنا لا بد من اشارة مهمة بما يخص عبارة " بيت Oikos في مفهوم الكتاب المقدس ليتسنى لنا فهم اوضح.

في سفر التكوين عندما طلب يوسف ، الذي كان مقرباً من فرعون مصر ، من اخوته ان يعودوا الى ارض كنعان حيث كان جوع ويأتوا بأبيهم يعقوب الى مصر حيث الخيرات ، قال لهم : " خذوا اباكم وبيوتكم وتعالوا الي " (٤٥ : ١٨) ، وعندما اتى يعقوب من ارض كنعان الى مصر نقرأ : " وجاءوا الى مصر يعقوب وكل نسله معه ، بنوه وبنو بنيهم معه وبناته وبنات بنيهم وكل نسله جاء بهم معه الى مصر " (٤٦ : ٦-٧). هذا الفهم لعبارة " بيت " نجده شائعاً في الكتاب المقدس. اذ نقرأ ايضاً ان الملك شاول عندما هدّد اخيمالك بالموت قال له : " موتاً تموت انت وكل بيت ابيك " (١ صمو ٢٢ : ١٦) وعن تنفيذ تهديده نقرأ : " وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف ، الرجال والنساء والاطفال والرضعان ... " (١ صموئيل ٢٢ : ١٩) الملاحظ هنا ان بيت اخيمالك شمل ايضاً " الاطفال والرضعان ". اذا ربطنا كل هذه العبارات المتعلقة بـ " بيت " نفهم اكثر فاكثر ان البيت يشمل الكبار والصغار رجالاً ونساءً. وبالتالي لا نرى سبباً لحرمان الاطفال المعمودية اذا كانت عبارة " بيت " تعني هذا المعنى الشامل.

على كل حال ، اذا كانت المعمودية تسمى في الكتاب المقدس " ولادة ثانية " (انظر مثلاً يو ٣ : ٥ ، تي ٣ : ٥ ، ١ بط ١ : ٣ و ٢٣) ، فاننا نعلم بان المولود لا يقرر ولادته

بنفسه بل يقررها عنه والداه. قد يسأل احدهم ، وهل هذا يسري على الكبار ايضاً اذا ما ارادوا " الولادة الثانية " ؟ نجيب بانه كان في الكنيسة الاولى تعليم خاص بالكبار المزمعين ان يعتمدوا وكانوا يُسمون " الموعوظين " وهؤلاء ما كانوا وحدهم يقررون " ولادتهم الثانية " ، بل كانت معموديتهم تتم بقبول وبركة اسقفهم.

اما اذا اصر الحرفيون على عدم تعميم الاطفال لاي سبب آخر فنقول لهم ان بولس الرسول شبه المعمودية بالختان قائلاً : " وبه ايضاً ختنتم ختناً غير مصنوع بيد ، بخلع جسم الخطايا البشرية بختان المسيح مدفونين معه في المعمودية التي فيها اقمتم ايضاً معه ... " (كو ٢ : ١١-١٢) ، ونحن نعلم ان الختان كان يجري للمولودين حديثاً وهم في اليوم الثامن كما حدث مثلاً مع ربنا يسوع المسيح (انظر لو ٢ : ٢١). هذا الختان كان " علامة عهد " بين الله وشعبه في العهد القديم (انظر تك ١٧ : ١١) ، وما تشبيهه بالمعمودية الا للتأكيد على " علامة عهد " جديدة لا تُمنع عن الاطفال كما لم تُمنع عنهم قديماً.

٣- قد يأخذ البعض بحرفية آيات الكتاب المقدس مما يستتبع فهماً بعيداً عن المعنى الحقيقي لكلمات ربنا يسوع المسيح وكتابات الرسل ، خاصة وان القراءة الحرفية لا تكون باللغة الاصلية التي كُتبت فيها النص أي اليونانية ، بل تكون النصوص مترجمة ، مما يضيّع المعاني الحقيقية. قد يقول احدهم اذا اعتمدنا على هذا الكلام و اردنا قراءة الكتاب المقدس فهذا يعني ان علينا دراسة لغتيه الاصيلتين (العبرية واليونانية) قبل المباشرة بقراءته وهذا متعذر تحقيقه فنتعذر عليهم بالتالي قراءة الكتاب المقدس مما يحرمهم الالتزام بكلمة الله. جواب الكنيسة مستمد من لقاء الرسول فيليب على الطريق المنحدرة من اورشليم الى غزة بوزير كنداكة ملكة الحبشة الذي كان يقرأ النبي اشعيا ، فسأله الرسول : " العلك تفهم ما انت تقرأ " ، فأجابه الوزير : " كيف يمكنني ان لم يرشدني احد " (أع ٨ : ٢٦-٣١) . نحن ايضاً بإمكاننا القراءة ولكن من الجائز جداً ان لا نفهم المعاني الحقيقية ان لم يرشدنا احد ، وهذا " الاحد " ليس سوى الروح القدس ملهم الانجيليين والرسل وهو نفسه المستقر في ربنا يسوع المسيح (لو ٤ : ١٨-٢١) ومنه في الكنيسة المقدسة جسده وهو رأسها (افسس ٥ : ٢٣). اذاً ، مرجع الايمان الكنيسة وهي المفسرة الوحيدة للكتاب المقدس لانها هي التي اقرته في الشكل الذي نعرفه اليوم.

بناءً على هذا الشرح لا بد من توضيح لمقطع في نهاية انجيل متى كثيراً ما يُساء فهمه ، وهو الكلام الذي ودع به يسوع تلاميذه بعد قيامته : " اذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس ، وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم له ... "

(متى ٢٨ : ١٩-٢٠) . البعض يفهم ان "تلمذوا وعمّدوا" تفترض ان على التلميذ ان يكون كبيراً

كي يفهم وطالما ان الصغير لا يستطيع ان يفهم يجب الا نعمده الا حين يكبر ويستطيع فهم التعليم الايماني. النص الاصلي لا يشير صراحةً الى هذا المفهوم لان ترجمة النص الحرفية هي : "تلمذوا جميع الامم معمدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس ، معلمين اياهم ان يحفظوا... " . نلاحظ ان الفرق بين النص العربي والنص اليوناني هو ان النص الاول ترجم الافعال الثلاثة الى صيغة الامر فيما نجد في النص الاصلي الفعل "تلمذوا" فقط في صيغة الامر ، اما الفعلان الآخران فقد وردا في صيغة اسم الفاعل "معمدين" و"معلمين". ماذا يعني هذا الكلام ؟ ان التلميذة لا تتم من تلقاء ذاتها لان التلميذ لا يتلمذ على نفسه بل على انسان آخر يكون معلماً له ، وهذا بديهي ، ولا يسمى أي تلميذ تلميذاً لفلان الا اذا التزم فكره او تعليمه او لآراءه او سيرة حياته... ولهذا فان التلميذة ليسوع لا تبدأ من ذاتها انما من يسوع نفسه ، وتتحقق فعلاً بالافتداء به بدءاً بالمعمودية واستمراراً بتقبلنا اياه ونمونا فيه بالمناولة الالهية وسماع كلمته والالتزام بها ، وهذا ما تتأثر الكنيسة المقدسة عليه في حياتها وسلوكها لتوصل ابناءها جميعاً الى ملء قامة المسيح. من هنا يتضح معنى تعبير " تلمذوا معمدين ومعلمين " . فاذا اعتبرنا ان التلميذة تتم بعد التعليم وليس قبله ، واذا تكلمنا بكلام الحرفيين انفسهم نجد ان التعليم لا يسبق المعمودية بل يتبعها وبالتالي ، فان اطفالنا بحسب تعليم الكنيسة يستطيعون ان ينموا بشكل افضل في المسيح وكلمته بعد المعمودية لان الروح القدس الذي استحقوه وكسبوه هو الذي يساعدهم على فهم الايمان اذ هو المعلم والمذكر بكلام ربنا (يو ١٤ : ٢٦) ، ليصبحوا تلاميذ حقيقيين ينقلون " الايمان المسلم مرة للقديسين " . (يهوذا ٣) .

تاريخياً ، معمودية الاطفال لم تكن تتم احياناً لان البعض كانوا يعتقدون ان المعمودية هي لغفران الخطايا ، وبما ان الاطفال غير خطاة فلا ضرورة لتعميدهم ، لكن الكنيسة رفضت

وترفض هذا الرأي المغلوط وتعلم ان المعمودية هي باب للخلاص. جاء في القانون ١١٠ من مجمع قرطاجة المحلي المنعقد سنة ٤١٩ : " ورضي المجمع ان يحدد ما يأتي " ان كل من ينكر أن يعمد الاطفال المولودين حديثاً ، وكل من يقول ان المعمودية هي لغفران الخطايا وان الاطفال لا يرثون من آدم الخطيئة الجدية التي تحتاج الى التنقية بحميم الولادة الثانية ، ويستنتج من ذلك ان رسم المعمودية لغفران الخطايا للولادة هو رسم باطل لا حقيقي ، فليكن مبسلاً. لان ما يقوله الرسول : " كما انها بانسان واحد دخلت الخطيئة الى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس بالذي جميعهم خطئوا فيه " (رو ٥ : ١٢) لا يمكن

ان يُفهم بمعنى آخر غير الذي فهمته وعلمته الكنيسة الجامعة في كل مكان . وبموجب هذا  
الايمان تكون عمادة الاطفال الذين لم يرتكبوا بعد هم انفسهم خطيئة. لغفران الخطايا ايضاً.  
فان ما ورثوه من الخطيئة من آباءهم بالولادة يطهَّر بالولادة الثانية".